

دمية القصر

أيامه عُرِفَتْ فيها رئاستُهُ ... كجدول التبر يَسْقِي روضَ ديباج .
ثَنَاهُ ومَوَاضِيهِ ونِعَمَتُهُ ... حَلِيٌّ لِأَيْدٍ وَأَعْنَاقٍ وَأَوْدَاج .
فَالْبَيْتُ بَيْتُ عُلَاٍّ وَالْكَفُّ كَفُ نَدَى ... وَالنُّطْقُ نَطْقُ بَلِيغِ الْفَضْلِ مَحْجَاةٍ .
وَقُتَاهُ وَقْتُ نَدَى تَنْدَى غَمَامَتُهُ ... وَوَقْتُ بَأْسٍ يُغَشِّيه بِإِرْهَاج .
يَسْتَنْفِذُ الْوَصْفَ فِي أَدْنَى مَنَاقِبِهِ ... وَيَمْلَأُ الثَّنِيَّ مِنْ صُحُفٍ وَأَدْرَاج .
مَآثِرُ كَاثَرَتْ حَمْرَ الذِّقَا وَمَحْتٌ ... آيَ الدُّجَى وَارْتَقَتْ أَعْرَافَ أَبْرَاج .
وَعُورَةُ مِثْلَ أَنْفِ الرِّعْنِ شَامِخَةٌ ... فِي بَحْرِ جُودٍ صَخُوبِ اللَّجْجِ عَجَّاج .
مِنْ مَعْشَرٍ كَأَنَابِيبِ الْقَنَافَةِ سَمَتْ ... بِكَفٍّ قَارِعِ حِصْنِ السَّابِقِ النَّاجِي .
ومنها :

أَلَسْتَ نَجَلَ فَتَى سَحَابٍ أُرْدِيَةٍ ... دَخَالِ نَقْعٍ مِصَاعٍ مِنْهُ خَرَّاج .
لَا يُوَصِّفُ الْعَبْدُ فِي أَحْشَاءِ بَدْوَتِهِ ... وَلَا تَحْمَلُ أَطْعَانٍ وَأَحْدَاج .
ومنها :

هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي تَذَكُّو غَزَالَتُهُ ... يَغْشَى سَنَا الْبَدْرِ فِي طَارِفِ الدُّجَى السَّاجِي .
فَخُذْهُ كَالْفَجْرِ وَصَّاحًا مُقْلَدُهُ ... تَرِبَ التَّرْبِيَةِ مِنْ بِيضَاءِ مِرْغُنَاج .
قَالَ يَرْنِي الشَّيْخُ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ الْجُوَيْنِي رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ :
عُلُومُ عِلَلَاتٍ أَعْلَامُهَا غَبَرَاتُهَا ... وَأَعْيُنُ أَعْيَانٍ طَغَّتْ غَبَرَاتُهَا .
وَأَفْلَازُ أَكْبَادٍ مِنَ الْفَضْلِ فُتِّشَتْ ... فُؤَدٌ عَلَى تَفْتِيَّتِهَا زَفَرَاتُهَا .
نَبَا بَلِيوْثِ الْغَابِ عُقْرَ غُيُولِهَا ... وَأُخْلِيَّ مِنْ عُفْرِ الْفَلَاسِمَرَاتِهَا .
أَبَى الْعِزِّ إِلَّا تَذَقُّصًا ... مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى اسْتَقْلَعَتْ شَجَرَاتُهَا .
تَدَاعَتْ مَبَانِي الدِّينِ وَانْهَدَّ رُكْنُهُ ... وَدُهُودُهُ مِنْ أَطْوَادِهِ صَخَرَاتُهَا .
وَوَارَى ضِيَاءُ الشَّمْسِ فَانْكَسَفَتْ لَهُ ... شَمُوسُ وَأَقْمَارُ خَبَّتْ شَرَرَاتُهَا .
أَرَى عُصْبًا تِيْجَانُهَا قَدْ تَقَوَّصَتْ ... وَقَدْ عَصَبَتْهَا بِالثَّرَى غَبَرَاتُهَا .
وَأَوَّجَهُ أَقْوَامُ كِرَامٍ عَلَى الْعُلَا ... وَقَدْ رَهَقَتْهَا فَجَعَةٌ فَتَرَاتُهَا .
إِذَا شَقَّقَتْ أَجْفَانَهَا عَبْرَاتُهَا ... تَشَقَّقُ عَنْ أَبْدَانِهَا حَبَرَاتُهَا .
عَلَا الْحَيَّرُ عَبْدُ اللَّهِ صِهْوَةً سَابِقٍ ... قَوَائِمُهُ مِنْ مَعْشَرٍ قَصَرَاتُهَا .
وَإِنَّ قُلُوبًا قُطِّعَتْ لَوْفَاتِهِ ... كَوَاتُهَا عَلَى تَقْطِيعِهَا حَسَرَاتُهَا .
ذَوْتُ دَوْحَةٍ الْإِسْلَامِ وَالْعِلْمِ وَالْعُلَا ... بِمَصْرَعِ مَنْ جَذَّتْ بِهِ ثَمَرَاتُهَا .

هوى نجمُها العالى وأظلمَ جَوُّها ... ومادت رواسيها ومارتْ كراتُها .
ألا من لحافلٍ نَدَّ منه لُقد خلتْ ... نَوادٍ وعادتْ غَيبَةً حَصَراتُها .
سلامٌ على المَنطيقِ في شُبُّها تها ... إذا ما رجالٌ عاقَها حَصَراتُها .
برغم النِّوَادي والمَجالسِ رُزُّقَتْ ... موارِدُها وارْتَدَّ مِلْحاً فُراتُها .
برغم الفَتاوى والمدارسِ هُوَّرتْ ... خواطرُها واستُنزَفَتْ خَطراتُها .
برغم العلا والدين والعلم والحجى ... ثوى البدرُ والبيضاءُ ضلَّتْ سَراتُها .
فيا وَيَبَ أحداقِ طُمسُنَ بأدمعٍ ... غِزارٍ تَدَمَّتْ حُرْقَةً فَطَراتُها .
ويا وَيحَ أقدامِ عَثَرْنَ لِفَقْدِهِ ... فلمَّا استقالتْ ثُبَّتْ عَثَراتُها .
فجائعٌ سالتْ بالخدودِ دماؤُها ... كذا وتَهاوتْ في الحَشا جَمَراتُها .
لَخَفَّتْ مَثاقيلُ الرجالِ وأضَلَّتْ ... حُلوماً وطاشَتْ بَعْدَهُ وَقَراتُها .
وكان إذا ما حرَّرتْ كلماته ... معانيَ لم تَرَقُمْ سَطورا قُراتها .
وما ذاكَ فَهَمُّ المُستفيدِ وإنَّما ... سَنا نورَ تفهيمِ المفيدِ مِراتُها .
ومنها :